العيون والطلائع الإسلامية في عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم)

أحمد محمد عدوان*

* حصل على الدكتوراه من جامعة بير زيت ـ كلية الآداب عام ١٩٨٣
يعمل مدرسا بقسم التاريخ بجامعة الملك سعود ـ الرياض، المملكة العربية السعودية

الملخص

هذا البحث يتحدث عن دور العيون والطلائع في المعركة الإسلامية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، أشرت فيه إلى الضرورة الملّحة لمثل هذه الشريحة العسكرية نظرا لخطورة الدور الذي تقوم به، من جمع للمعلومات عن جيش العدو وأرضه، بالإضافة إلى مهام عديدة كانت تسند إليها.

ونظرا لخطورة المهمة التي كانت تقوم بها، كان يختار لها رجال أكفاء يتمتعون بقدرات متعددة. ورغم ذلك لم يهمل المسلمون عنصر الدقة في دراسة المعلومات التي تصلهم عن طريق تعدد العيون، ومقارنة المعلومات التي تصلهم، إما مكاتبة أو مشافهة. وقد اعتمد الرسول صلى الله عليه و سلم إرسال العيون والطلائع في كل المعارك التي خاضها ضد المشركين. وكان للمعلومات التي تصله الأثر الواضح في تحقيق تلك الانتصارات الرائعة التي حققتها الدعوة الإسلامية سواء ضد الجماعات أو الأفراد.

وأشار البحث إلى ضرورة الحذر من عيون العدو وطلائعه، وكيف أن المسلمين طبّقوا مبدأ الكتمان في تحركاتهم لإخفاء المعلومات عن عيون العدو، وكذلك أقاموا الحراسات حتى لا تتمكن هذه العيون من اختراق صفوف المسلمين لجمع المعلومات عنهم. ورغم ذلك فقد قبض على جواسيس للعدو تمكنوا من التسلل، وأجرى معهم التحقيق لمعرفة طبيعة مهمتهم، فمنهم من يعترف ويسلم، ومنهم من ينكر فيتعرض للعقوبة. وتمكن البعض الآخر من الوصول إلى هدفهم، حتى أن بعضهم هدد حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهدد المسلمين أكثر من مرّة، لكن هذا التهديد لم يكن ذا طابع خطر.

ولقد حرص المسلمون على معاملة عيون العدو حين يقعون في الأسر معاملة متزنة تستهدف الحصول على المعلومات أولا بأسلوب فيه كياسة وفطنة، كما فعل الرسول عليه السلام مع عيون ألقى عليهم القبض قبل معركة بدر. وكان يعرض عليهم الإسلام فيدخل البعض ويرفض البعض الآخر. وكان منهم من يطلب الأمان لنفسه وأهله نظير تقديم المعلومات فكان يوافق على طلبه. وخلال البحث يتبين للدارس، أن الإسلام أجاز أشياء في حالة الحرب وحرمها في غيرها، فقد أجاز التجسس والتمويه وخداع الأعداء، إذا كان في ذلك مصلحة المسلمين، وأجاز القطع والهدم في حالة الحرب، وحرمه في غيرها.

ضرورة العيون والطلائع في الحروب[١]

إن الدّارس لسير المعارك في الحروب المختلفة يدرك أهمية بل ضرورة بث العيون والطلائع قبل حدوث الاشتباكات، فهي التي تقوم بجمع المعلومات اللّازمة عن جيش العدو من حيث العَدد والعُدد وأساليب التدريب ووسائله، ويتعرفون على الظروف النفسية المحيطة به، ويتعرفون أيضا على طبيعة الأرض التي ستدور عليها المعارك، كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام في معركة أحد[٢]. والحصول على المعلومات يضمن وضع خطة محكمة لمواجهة العدو والتغلب عليه من ناحية، ومن ناحية أخرى توفير الأمن ضد تحركاته ومخططاته، وعدم إعطائه الفرصة لتحقيق عنصر المفاجأة. وكلما كانت المعلومات دقيقة وصحيحة كلما كانت النتائج المتوقعة كبيرة.

ولقد أدرك المسلمون بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم كل تلك الأمور. فكانوا يحرصون على إرسال العيون والطلائع إلى أرض العدو، فيعودون بالمعلومات المطلوبة، حيث تخضعها القيادة للفحص والتدقيق والتحليل لاستخلاص النتائج والوصول إلى الهدف المنشود. وعلى ضوء ما تتوصل إليه القيادة، تقوم برسم الخطط ووضع الاحتمالات المتوقعة.

والمعروف أن العيون والطلائع الإسلامية في هذه الفترة كانت تسند إليها مهمات أخرى غير جمع المعلومات، منها أشعار قريش وغيرها من القبائل المعادية بما صار للمسلمين من قوة قادرة على ردع المعارضين ومهاجمتهم، وتخويف اليهود حتى يكفوا عن التعرض للدعوة وإثارة الشكوك حولها، كذلك تأديب بعض الشخصيات والتخلص من البعض الآخر، لأنها آذت الرسول صلى الله عليه وسلم وآذت المسلمين، وكل هذه الأمور ستتضح في ثنايا البحث.

ومن المهام الأخرى التي تسند إليها، العمل على حماية خطوط المواصلات، ومنع عيون العدو من الاقتراب من مواقع المسلمين، كما أسند لبعض الطلائع الإسلامية اعتراض قوافل قريش التجارية.

وحتى يتمكن المسلمون من إنجاح خططهم وتسهيل مهمة عيونهم قاموا بعقد محالفات وموادعات مع بعض القبائل العربية التي تقيم حول المدينة المنورة، وكذلك على طريق القوافل التجارية التي تسلكها قريش، ومن هذه القبائل بنو حمزة وبنو مدلج[٣].

اختيار العيون والطلائع

إن خطورة المهمة التي تطلع بها العيون تتطلب رجالا أكفاء يعتمد عليهم، حيث يطلب منهم الذهاب إلى أرض العدو[٤]، أو مكان تجمع قواته، فيقيمون بين أظهرهم أحيانا، ويراقبونهم عن قرب أحيانا أخرى، حتى يتمكنوا من جمع المعلومات الضرورية، ولهذا وجب أن تتوفر فيهم صفات وشروط عديدة أهمها: الفطنة والذكاء والحذر والفهم والإدراك الدقيق، القدرة على التصرف، وتقدير الأمور حق قدرها، وإصدار الأحكام السليمة، ولابد أن يكون لديهم صفاء في الرؤية، ومرونة في التصرف،

وعليهم أن يتمتعوا بالثبات والاتزان في المواقف الخطرة والظروف الحرجة. ويجب أن تتوفر لديهم غريزة حب الاستطلاع، والقدرة على كتمان المعلومات وحفظ الأسرار، وقوة الملاحظة وسرعة البديهة إضافة إلى الصدق والأمانة. كل هذه الصفات كانت متوفرة في عيون المسلمين وطلائعهم، خاصة وأنهم كانوا يختارون من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وجاء في رسالة بعث بها الصحابي الجليل الخليفة عمر بن الخطاب إلى القائد سعد بن أبي وقاص ما يدل على ضرورة انتقاء أناس تتوفر فيهم تلك الصفات.

« . . . وإذا وطئت أرض العدو فاذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه. فإن الكذوب لاينفعك خبره وإن صدقك بعضه، والغاش عين عليك وليس عين لك، وليكن منك عند دنوك في أرض العدو أن تكثر الطلائع بينك وبينهم، وتنق الطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخيّر لهم سوابق الخيل. . . واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر والجلاد، ولا تخص بها أحداً تهوى، فتطيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك (فرج : ٢٩٤) هذا هو إذن رأي الخليفة عمر في نوعية من يختارون لهذه المهام الصعبة ومن الطبيعي ان مثل هذه الصفات كانت متوفرة في رجال الرسول صلى الله عليه وسلم، فالخليفة عمر رضى الله عنه هو أحد خريجي المدرسة العسكرية النبوية، ويمكن ان نضيف إلى ما سبق أن يكون العين على معرفة بلغة العدو، كما حدث عندما أرسل عليه الصلاة والسلام مجموعة من الرجال للتخلص من زعيم اليهود ابن أبي الحقيق وكانوا برئاسة عبدالله بن عتيك الذي كان يتحدث العبرية بطلاقة[٥].

أما عن اختبار العيون

فهذا أمر طبق في فترة لاحقة، أما في هذه الفترة فلا مجال للاختبار وحاشى لله أن يكون الصحابة الذين اختيروا لهذه المهمة موضع شك أو ريبه، ولكن كان هناك إجراء، الهدف منه التحري والدقة، زيادة في الحرص لمعرفة مدى دقة المعلومات التي وصلتهم، وذلك عن طريق تعدد المصادر، كما حدث مثلا في معركة أحد، إذ أرسل المسلمون أنسا ومؤنسا ابني فضالة (ابن حجر، ١٣٢٨، جـ ١ : ٧٠)، (ابن عبد البر، جـ ١ : ١١٢)، (البغدادي : ٢٨٥) للاستطلاع، فعادا ومعهما المعلومات، ثم أرسل الحباب ابن المنذر (ابن عبد البر، جـ ١ : ٣١٦)، (ابن حجر، ١٣٢٨، جـ ١ : ٣٠٢) لنفس الغرض، وعاد بمعلومات تؤكد حشد قريش واستعدادها، ثم أردف هؤلاء بثالث وهو سلمة بن سلامة، فعاد وأخبر المسلمين بأن قريشاً أصبحت قاب قوسين أو أدنى من حدود المدينة.

ولا يجب أن يفهم من هذا أن المسلمين كانوا غير واثقين في المعلومات التي تصلهم، لكنهم يهدفون إلى التأكد، ومتابعة تحركات العدو مرحلة تلو أخرى.

ومن الجدير بالذكر أن عيون المسلمين استخدمت في عملها وسائل مختلفة، منها الرسائل

المكتوبة، كتلك التي بعثها العباس للرسول عليه السلام، بخصوص استعداد قريش وحشدها ضد المسلمين. وأحيانا استخدموا الرسائل الشفوية التي تحملها العيون مباشرة للقيادة الإسلامية في المدينة، وجميعها تعتمد على المشاهدة والرصد والمخالطة والبحث والاستقصاء.

ويمكننا أن نجزم بنجاح العيون النبوية، ودليلنا على ذلك أنه لم ترد في كتب السيرة أو غيرها حادثة واحدة انكشف فيه أمر أحد من عيون المسلمين، كذلك فإن نوايا الأعداء بالعدوان أو الاستعداد له كانت تصلهم في وقت مبكر يمّكنهم من اتخاذ الإجراءات الوقائية التي تكفل حسم الموقف لصالح المسلمين، وأخيرا فإن المسلمين وعلى رأسهم الرسول صلى الله عليه وسلم لم يضعوا خطة لغزوة أو سرية دون أن تكون لديهم المعلومات الكافية الكفيلة بتحقيق النصر.

جولة تاريخية عن العيون والطلائع النبوية

كانت العيون والطلائع تسير وفق منهج مرسوم ومحدد، فالاستطلاع يكون دائما موجها ومستمرا ليلا ونهارا وفي مختلف الظروف، وعلى أية أرض. وكان فعّالاً وسرّياً بغية تأمين نجاحه. ولابد أن تكون المعلومات المنقولة متطابقة مع الواقع (اسماعيل، ١٩٨٢ : ١٢٤). ولقد طبق هذا المنهج تطبيقا فعليا كما حدث في معركة بدر، فقد أرسلت بعض الطلائع أمام الجيش للتعرف على أخبار العدو، منها طليعة مكونة من طلحة بن عبدالله التيمى وسعيد ابن زيد بن عمر بن نفيل ليتعرفا على أخبار العير التابعة لقريش (ابن سعد، ١٣٩٨، جـ ٢ : ١١)،(ابن سيد الناس، ١٩٧٤، جـ ١ : ٢٤٢). ثم أرسلت مجموعة أخرى من العيون لنفس الغرض وهم: بسبس بن عمرو الجهني وعدى بن أبى الزغباء[٦]. وتمكن هؤلاء من معرفة زمن وصول القافلة خلال يومين من حديث جرى بين جارتين على عين ماء (ابن هشام، جـ ١ : ٦١٧)، (ابن حزم : ١١٠).

وبالإضافة إلى ذلك فلابد أن نشير إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقوم أحيانا بنفسه ليتقصى الأخبار ويجمع المعلومات، فبينما كان يتجول مع بعض أصحابه قرب معسكر قريش، تقابل مع رجل من الأعراب فأراد عليه السلام أن يسأله عن قريش، وفي نفس الوقت يريد أن يبعد الشبهة حول سؤاله، فسأله عن جيش قريش وجيش المسلمين زيادة في التكتم (ابن هشام، جـ ١ : ٦١٦)، لكن الرجل قال للرسول صلى الله عليه وسلم لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما، فقال له عليه السلام إذا أخبرتنا أخبرناك قال الرجل فإنه بلغني أن قريشا خرجت يوم كذا، فإن كان الذي أخبرني قد صدق فهم اليوم بمكان كذا، وأنه بلغني أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا فإن صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا. . . . .

ولما فرغ الرجل قال لهم ممن أنتما فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم من ماء (ابن هشام، جـ ١ : ٦١٦)، (ابن كثير، ١٩٦٦، جـ ٣ : ٢٦٤)، ثم مضى ولم يعرفه الرجل، وهذا تشريع أقرّه الرسول وهو جواز التمويه للحصول على المعلومات ما دامت في صالح المسلمين.

بعد هذه الحادثة تحرك بعض القادة من الصحابة ليستطلعوا أخبار العدو (ابن قيم الجوزية، ١٣٩٠، جـ ٢ : ٩٦)، وعما إذا كانت هناك مستجدات ينقلونها لمقر القيادة. وكانوا، علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص، رضى الله عنهم، فوصل الجميع إلى ماء بدر (الطبري، جـ ٣ : ١٢٨٦ ـ ١٢٨٧)، (المقريزي، ١٩٤١، جـ ١ : ٧٦)، وألقوا القبض على غلامين هناك (ابن هشام، جـ ١ : ٦١٦)، (ابن سعد، ١٣٩٨، جـ ٢ : ١٥). وحاولوا استجوابهم لكنهم لم يحصلوا منهم على مايريدون (الطبري، جـ ٣ : ١٢٨٦ ـ ١٢٨٧)، (ابن سيد الناس، ١٩٧٤، جـ ١ : ٢٤٩)، (الغزالي، ١٩٦٥، جـ ١ : ٢٣٦) فحملوهم إلى المعسكر، حيث بدأ الرسول عليه السلام باستجوابهم فأنكروا معرفة عدد العدو، ولكن بعد مواصلة التحقيق عرف عليه الصلاة والسلام عدد القوم، ومكان نزولهم والشخصيات البارزة المشاركة في الحملة(ابن هشام، جـ ١ : ٦١٦ ـ ٦١٧)، (ابن قيم الجوزية، ١٣٩٠، جـ ٢ : ٩٦)، (المقريزي، ١٩٤١، جـ ١ : ٧٦ ـ ٧٧).

وقبل معركة أحد تذكر المصادر بأن العباس عم الرسول عليه الصلاة والسلام أرسل للمسلمين رسالة تخبرهم عن موعد خروج قريش وعدد قواتها. وللدلالة على مدى قوة الاستخبارات الإسلامية أن المسلمين بعد معركة أحد كانوا يتوقعون أن تقوم بعض القبائل العربية الوثنية باستغلال الفرصة وتهاجم المدينة، لكن العيون الإسلامية لم تكن غافلة عما يدور بين هذه القبائل، إذ كانت تنقل ما يدور إلى القيادة في المدينة أولا بأول، الأمر الذي مكّن المسلمين من ضرب هؤلاء وتفريقهم (اليعقوبي، جـ ٢ : ٤٧). كذلك عرف سليط بن النعمان بنية قريش في تغيير طريق تجارتها، وكان سليط يخالطهم ويجالسهم فأسرع وأبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم بالأمر فتمكن المسلمون منهم[٧].

وكذلك الحال قبل غزوة الخندق، حيث علم المسلمون من عيونهم في مكة والقبائل بنيّة قريش وحلفائها في غزو المدينة، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق، الذي كان مفاجأة للعدو. وهذا لا يدل فقط على عجز عيون العدو عن معرفة ما يدور في المدينة فقط. ولكن يدل على مدى إحكام المسلمين ودقتهم ونجاحهم في منع تسرب مثل هذه الأخبار إلى أعدائهم، رغم أن العمل في الخندق استمر حوالي عشرين يوما (باشميل : ٥٧).

وعلى العموم، فبعد وصول الأحزاب إلى المدينة ومفاجأتهم بالخندق أخذوا يتحرشون بالمسلمين الذين كانوا يقومون بدورهم باتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع الأحزاب من تحقيق أهدافها، فبثوا العيون والطلائع وكذلك الحراسات. وقد روى أنه في يوم الأحزاب قام الزبير بن العوام باستطلاع خبر العدو (محفوظ، ١٩٧٦ : ١٥٤)، وكذلك كلف الرسول صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان ليأتيه بخبر الأحزاب، وأوصاه (ألا ترم بسهم ولا حجر ولا تضربن بسيف. حتى تأتيني). فانطلق حذيفة ودخل في صفوف الأحزاب وعلم ما هم عليه من شدّة وخوف وعزم على الرحيل، فانطلق عائداً وأخبر الرسول خبر الأحزاب. ويذكر حذيفة أنه كان بإمكانه قتل أبا سفيان لولا عهده لرسول الله ألا يحدث شيئا.

وهذا يدل على أن القيادة الإسلامية كانت تهتم بجمع الأخبار أكثر من اهتمامها بالتخلص من فرد أو أفراد تقديرا منها لأهمية المعلومات التي تتلقاها.

وبعد فتح مكة علم المسلمون أن قبيلة هوازن وثقيف تبيتان النية لغزو المدينة، فأرسل عليه السلام عبدالله بن أبى حدرد الأسلمى (الطبرى، جـ ٣ : ٧٣) ليستطلع الخبر. ويذكر ابن هشام أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما سمع بخبر القوم بعث إليهم عبدالله بن أبى حدرد، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم، فأنطلق وأقام فيهم وعلم ما قد جمعوا له من حرب المسلمين، ثم أقبل فأخبرهم الخبر (الطبري، جـ ٣ : ٧٣)، (ابن حجر، ١٣٢٨، جـ ٢ : ٩٤)

هذا وكان عليه السلام يستعين في بعض غزواته ببعض أهل المناطق ويستميلهم إلى جانبه؛ ففي غزوة خيبر وأثناء حصار النطأه قبض المسلمون على رجل يهودي، فأمنّوه وأهله، فدلهم على مكان في الحصن لايعرفه غيره، فتمكن المسلمون من فتحه. وحول حصن آخر قبض المسلمون على رجل يهودى آخر اسمه عزال أمنّه المسلمون شريطة أن يدلهم على أماكن ضعيفة في الحصن، فكشف لهم أن دبولا في الحصن ـ الدبول: نهر صغير ـ تحت الأرض يخرجون ليلا فيشربون منها فقرر المسلمون قطع المياه عنهم فخرج اليهود من الحصن وقاتلوا حتى هزموا وتمكن المسلمون من فتح الحصن (ابن قيم الجوزية، ١٣٩٠، جـ ٢ : ١٥٠).

بالإضافة إلى ما سبق لابد أن نذكر أنه كان للمسلمين عيون في مكة والمدينة، وكذلك بين القبائل العربية، بدليل أن المصادر التي تتحدث عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، لابد وأن تشير بصفة دائمة إلى عبارة تدل على وجود عيون لهم في أماكن مختلفة، فالمصادر تقول. . . علم المسلمون . . . جاءتهم الأخبار، وبلغ الرسول . . . وتكرار هذه العبارات في المصادر تدل دلالة واضحة على ماذهبنا إليه.

ففي مكة مثلا كان يستعين بعمه العباس، وكذلك ببشير بن سفيان العتكي (ابن عبد البر، جـ ٩ : ١٧٧) أما في المدينة فكان حذيفة بن اليمان الذي اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم دون غيره ليقف على أخبار المنافقين (ابن عبد البر، جـ ١ : ٣٣٤)، (ابن الجوزى، ١٣٨٩، جـ ١ : ٦١٠). أما في القبائل فقد ذكرنا عبيدالله بن أبي حدرد الأسلمي من هوازن، وكذلك عيينة الخزاعي (ابن قيم الجوزية، ١٣٩٠، جـ ٢ : ١٤١).

وإذا أردنا أن ندلل على مانقول، نذكر أنه في السنة الرابعة من الهجرة جاء رجل من بني أسد وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام أن طليحة ومسلمة ابني خويلد الأسدى يحرّضان قومهما ضد المسلمين، الأمر الذي مكن المسلمين من الإيقاع ببني أسد (الطنطاوي، ١٩٧١ : ٦٢ ـ ٦٣). هذا وقد بلغت قوة العيون الإسلامية في هذه الفترة أنها كانت تتبع خطوات الوفد اليهودي الذي خرج لتحريض القبائل وجمعها ضد المسلمين، وكانت التقارير تنقل إلى المدينة مباشرة، وما أن عم الاتفاق بين قريش والقبائل حتى كانت أخبار ذلك الاتفاق عند القيادة الإسلامية في المدينة، ثم وصلت أخبار لاحقة عن عدد قوات التحالف المعادي، وأسماء قادته، وموعد تحركهم، وهكذا. . وما أن وصل الأعداء إلى حدود المدينة حتى كان المسلمون قد أكملوا استعدادات الدفاع عن مدينتهم (باشميل: ١٤٨).

هذا وقد قامت العيون والطلائع النبوية بمهمات خاصة كلفت بها ضد أعداء الدعوة، وأنجزت مهماتها بنجاح كبير رغم ما تحمله من مخاطر.

ومن أهم العمليات التي أنجزتها العيون والطلائع عملية ضد أبي عفك اليهودي من بني عمر بن عوف (ابن سعد، ١٣٩٨، جـ ٢ : ٢٨)، وكان يحرض الناس على حرب المسلمين، وكان يهجوهم بأشعاره، حتى ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال: « من لي بهذا الخبيث ؟ » فقال سالم بن عمير (ابن عبد البر، جـ ٢ : ٦٥٧)، (ابن حجر، ١٣٢٨، جـ ٢ : ٥) علي نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه (المقريزي، ١٩٤١، جـ ١ : ١٠٣)، فأخذ سالم يتربص به وعلم أن عدو الله ينام في فناء داره، فأقتحم عليه داره ليلا وقتله (ابن سعد، ١٣٩٨، جـ ٢ : ٢٨). وهناك عملية أخرى ضد عصماء بنت مروان اليهودية زوجة يزيد بن زيد، وكانت المرأة تعيب على الإسلام، وتؤذي الرسول صلى الله عليه وسلم، وتحرض عليه، وتقول الشعر ضد المسلمين، فنذر عمير بن عدى (البغدادي : ٢٨٣)، (ابن عبد البر، جـ ٣ : ٣١٧) أنه إذا رد الله سبحانه وتعالى رسوله منتصرا ليقتلن هذه المرأة، وبعد أن انتصر المسلمون في بدر أوفى عمير نذره وتخلص المسلمون من شرها (المقريزي، ١٩٤١، جـ ١ : ١٠١ -١٠٢).

والمعروف أنه لايجوز قتل المرأة إلا إذا قاتلت أو ساعدت في أي أمر من أمور القتال، عند ذلك يطبق عليها حكم المقاتلين (الحسن، ١٤٠٠هـ : ١٨٥) ولا شك أن هذا ينطبق على عصماء.

وعملية أخرى نفذت ضد عدو الله كعب بن الأشرف، وهو من قبيلة بني نبهان من طي، أمّه يهودية من بني النضير (ابن هشام، جـ ٢ : ٥١)، ومن المعلوم أن الدّين اليهودي والجنسية الإسرائيلية تنتقل عند اليهود عن طريق الأم كما هو الحال عن طريق الأب (كمال، ١٩٨٢، جـ ١ : ٢٧) وقد أعلن كعب هذا بغضه وعدواته للرسول وللمسلمين، وكان كعب يصل أخبار اليهود بالمال، وعندما سألهم عن الرسول قالوا له، هو الذي كنا ننتظر، ما أنكرنا من نعوته شيئا، فقال لهم كعب، قد حرمتم كثيراً من الخير. . . ولم يعطهم شيئا. . . لكنهم عادوا إليه قائلين، إنا تعجلنا فيما أخبرناك به، إنه ليس النبي المنتظر، فرضى عنهم ووصلهم. وقد حزن اليهود لانتصار المسلمين في بدر، فقال كعب بعد أن عرف أشخاص القتلى من قريش، والله لئن كان ممن قد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها (ابن هشام، جـ ٢ : ٥٢).

ثم رجع إلى المدينة واخذ يتشبب في نساء المسلمين حتى آذاهم (ابن خلدون، ١٩٨١، جـ ٤ : ٧٥٧)، وتمادى كعب في طغيانه وغدره، حتى أنه أقر إلى قريش بأنهم على حق والمسلمين على باطل، فنزل قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب. . . . .) ونصح كعب بالكف عن أذى المسلمين، إلا أنه أبى واستكبر، فكانت النتيجة أن أهدر الرسول صلى الله عليه وسلم دمه قائلا: (من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله). ويذكر صاحب عيون الأثر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال من لنا من ابن الأشرف، فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا، وقد خرج إلى قريش فأجمعهم على قتالنا، وقد اخبرني الله بذلك (ابن سيد الناس، ١٩٧٤، جـ ١ : ٢٩٨ - ٢٩٩)، (البخاري، جـ

٢ : ١٧٤) (مسلم، جـ ٥ : ١٨٤) وقرأ عليهم الآية التي سبق أن ذكرناها (المقريزي، ١٩٤١، جـ ١ : ١٠٧ ـ ١٠٨).

وقد تعهد محمد بن سلمة (ابن قيم الجوزية، ١٣٩٠، جـ٢ : ١٠١) بالتخلص من كعب، وقد استأذن محمد بن سلمة الرسول عليه السلام أن يظهر لكعب خلاف ما يبطن، كما استأذن أن يقول كلاما فيه تمويه (ابن قيم الجوزية، جـ ٢ : ١٠٢)، (ابن كثير، ١٩٦٦، جـ ٤ : ٥)، وكان صحبه محمد بن سلمة كل من سلطان بن سلامة وعباد بن بشر والحارث بن أوس وأبو عيسى ابن جبير [٨]، فجاء سلطان إلى كعب، وقال له يا ابن الأشرف إني جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتمها عني، فقال أفعل (ابن سيد الناس، ١٩٧٤، جـ ١ : ٢٩٩)، قال سلطان كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء، عادتنا به العرب ورمتنا عن قوس واحدة (ابن سعد، ١٣٩٨، جـ ٢ : ٣٢)، فقال كعب، أما والله لقد أخبرتك يا أبن سلامة واتفق الطرفان على أن يبيع كعب لهم طعاما مقابل رهن سلاحهم، رغم أن كعبا رفض في أول الأمر، وطلب رهن أشياء أخرى (ابن كثير، ١٩٦٦، جـ٤ : ٥)، إلا أن سلطان نجح في إقناع كعب بقبول رهن السلاح، وكان سلطان يهدف من وراء ذلك أنه عندما يحضر مع أصحابه مدججين بالسلاح لا ينكر كعب أمرهم، ولا يخاف منهم ولا يأخذ حذره، وبالفعل عاد الرجال وهم يحملون سلاحهم فتمكنوا من ابن الأشرف وقتلوه (ابن هشام، جـ٢ : ٥٦)، (ابن سعد، ١٣٩٨، جـ٢ : ٣٢)، (ابن كثير، ١٩٦٦، جـ٤ : ٦) هذا وقد انطلقت مجموعة صغيرة أخرى للتخلص من ابي رافع ابن أبي الحقيق وكان يسكن بخيبر (ابن هشام، جـ٢ : ٢٧٣)، (ابن خلدون، ١٩٨١، جـ٤ : ٧٦٠)، وهو رأس اليهود وكان قد أعان غطفان وغيرها من المشركين بالمال لمحاربة المسلمين، وكانت هذه المجموعة بقيادة عبدالله ابن عتيك (الطبري، جـ٢ : ١٣٧٦)، (ابن عبد البر، ٩٤٧١٣)، (ابن حجر، ١٣٢٨، جـ٢ : ٣٤١)، ويذكر أنه كان يتحدث العبرية بطلاقة (ابن سعد، ١٣٩٨، جـ٢ : ٩١)، وهذه ميزة يجب أن يتمتع بها رجل المهمات إن أمكن، أي أن يكون قادرا على التحدث بلغة القوم الذين يتعامل معهم، وعلى العموم كان يرافق عبد الله في مهمته مسعود بن سنان وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة الحارث بن ربعي وخزاعي بن الأسود [٩]

تحرك المجاهدون ووصلوا ليلا، وطلب عبدالله من المجموعة أن تنتظره حتى يستطلع الأخبار، وعندما وصل إلى الحصن تمكن من دخوله وعندما هدأت الحركة توجه عبدالله إلى المكان الذي كان يقيم فيه ابن أبي الحقيق وقتله (ابن هشام، جـ١ : ٢٧٥)، (ابن سيد الناس، ١٩٧٤، جـ٢ : ٨٠)

ولا يجب أن يفوتنا أن نذكر أنه كان يسمح للعيون باستخدام الحيلة والمراوغة والكذب أحيانا إذا كان للضرورة (ابن عبد الوهاب، ١٣٩١ : ٢٩٤)، كما حدث مع بريرة الأسلمي عندما خرج عينا على بني المصطلق، حيث سمح له الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك إذا اقتضت الضرورة، كذلك ما حدث مع عبد الله بن أنيس الذي خرج للتأكد من صحة المعلومات التي وصلت للمسلمين عن نية خالد بن سفيان الهذلي ومعه بنو لحيان لغزو المدينة (ابن حزم : ٢٠٠)، (ابن سعد، ١٣٩٨، جـ٢ : ٧٨)، وقد سمح الرسول صلى الله عليه وسلم بقتل خالد إذا ثبت تآمرة ضد المسلمين (ابن كثير، ١٩٦٦، جـ٤ : ١٤٠) وقد سمح لعبد الله بالتنكر والكذب في حدود مهمته، ويبدو

أن عبدالله قد تأكد من تآمر خالد فتخلص منه (ابن كثير، ١٩٦٦، جـ٤ : ١٤٠)، (ابن سعد، ١٣٩٨، جـ٢ : ٥٠)، (ابن حجر، ١٣٢٨، جـ٢ : ٢٧٨).

الحذر من عيون العدو وطلائعه

حرص المسلمون أن يعرفوا عن عدوهم كل صغيرة وكبيرة، فقد كان العدو بدوره أيضا يحرص على نفس الغرض، وقد استخدم الأعداء وسائل كثيرة ومتعددة منها:

كانوا يرسلون بين الحين والآخر بعض العيون لاستطلاع أخبار المسلمين، بالإضافة إلى اعتمادهم على طابور المنافقين الذين كانوا يقيمون بين أظهر المسلمين، وكذلك على اليهود الحاقدين، والعرب الذين لا يزالون على كفرهم. وإلى جانب هؤلاء جميعا بعض تجار الانباط الذين كانوا ينقلون أخبار المسلمين إلى الدولة البيزنطية. أمام هذه الجهات المتعددة، ونظرا لخطورة الدور الذي تقوم به، حذّر الله سبحانه رسوله الكريم في مواضع عدة من كتابه الكريم أن يأخذ حذره من عدوه، وألّا يمكنه من معرفة أسراره، قال تعالى (وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو من الخوف أذاعوا به، ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا) وهذا كما يرى ابن كثير (الصابوني، سورة النّسْاء، آية ٨٣)، إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها. وقد لا تكون صحيحة. ويبين الله تعالى ضرورة إخبار المسؤولين عن كل أمر يهم المسلمين، ويؤثر في معنوياتهم، وهذا هو سر جعل المنافقين أنهم مصدر الإشاعات الضارة، حذر تعالى منهم، ودعى إلى وجوب التأكد من الأنباء التي يأتون بها، وقال تعالى (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم، ثم لا يجاوزونك منها إلا قليلا) (الصابوني، سورة الاحزاب، آية ٦٠) وللتأكيد على المسلمين بوجوب الحذر قال تعالى (وأطيعوا الله والرسول وأحذروا). وفي موضع آخر قال (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون).

ولعل ابلغ ما يؤكد اهتمام المسلمين بالحذر ما ورد في قوله تعالى بشأن الصلاة في فترة الحرب والتي تعرف بصلاة الخوف، حيث أمر المسلمين أن يقصروا في صلاتهم وتؤدى في وقتها، ويقسم المجاهدون إلى طائفتين واحدة تصلي والأخرى تتولى الحراسة وهكذا... قال تعالى (وإذا كنت فيهم، فأقمت الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة، ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم، وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا)، (الصابوني، سورة النساء، آية ١٠٢).

وانطلاقا من هذا التوجيه القرآني فقد حضَّ الرسول عليه الصلاة والسلام على اتخاذ الحيطة والحذر بجميع الوسائل الممكنة، فقال (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان) وقال أيضا (عينان لا تمسهما النارعين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله).

مما سبق يتبين لنا أن الحذر كان فرضا على المسلمين أن يتبعوه حتى لا يؤخذوا بغتة، لذلك نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يعتمد في ذلك على تنفيذ أمرين هامين هما: الكتمان وإقامة الحراسات لاتقاء شر العيون المعادية، ومنعهم من الحصول على أية معلومات.

أما عن تطبيق مبدأ الكتمان، فقد أقره الرسول عليه الصلاة والسلام في كل حركات الجيش وسكناته، فقبل معركة بدر ابتكر عليه السلام فكرة لم تعرف إلا في أيامنا هذه، وهذه الفكرة هي (الأوامر المختومة) أي المغلقة، حيث أعطى الصحابي الجليل عبد الله بن جحش رسالة مغلفة (ابن الجوزي، ١٣٨٩، جـ١ : ٣٨٥)، وكان يرافقه مجموعة من المهاجرين للقيام بمهمة استطلاعية (ابن خلدون، ١٩٨١، جـ٤ : ٧٤٦)، وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم ألا تفتح الرسالة إلا بعد مسيرة يومين من اتجاه عيَّنه الرسول، وبعد انقضاء المدّة فتح عبدالله الرسالة فقرأ فيها (إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة ـ بين مكة والطائف ـ فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم (ابن قيم الجوزية، ١٣٩٠، جـ٢ : ٩٤)، (ابن كثير، ١٩٦٦، جـ٣ : ٢٤٩)، (البخاري، جـ٢ : ١٧٠ ـ ١٧١). فقال عبد الله سمعا وطاعه، وبناء على تعليمات وردت في الرسالة استشار عبدالله أصحابه في الأمر، وذكر لهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم يوصيه ألا يستكره من رفاقه على مواصلة السير لاتمام المهمة التي كلفوا بها (ابن هشام، جـ١ : ٦٠١ ـ ٦٠٢)، (ابن حزم: ١٠٤)، (ابن كثير، ١٩٦٦، جـ٣ : ٢٤٩).

ولعل من الواضح أن الرسول قد لجأ إلى هذه الوسيلة لإخفاء الأمر عن عيون العدو حتى لاتعرف وجهة وهدف تحرك المجموعة. وفي أثناء المسير إلى بدر لمواجهة المشركين أمر عليه السلام أن تقطع الأجراس من أعناق الإبل لإخفاء حركة الجيش عن عيون العدو وحتى لاتسمع أصواته[١٠].

وبعد معركة أحد بشهرين تقريبا علم المسلمون أن بني أسد يستعدون لمهاجمتهم، فأرسلوا مفرزة عسكرية للتحري، وأمر الجند أن يسيروا ليلا ويختفوا نهارا، وأن يسلكوا طريقا غير مطروقة حتى لايطلع أحد على نواياهم (ابن قيم الجوزية، ١٣٩٠، جـ ٢ : ٩٣).

وهكذا كان المسلمون يدربون عيونهم على السير ليلا لأن الليل أكثر ملاءمة لتحرك القوات حتى يكونوا في مأمن من عيون العدو.

وفي معركة الخندق أخفى الرسول صلى الله عليه وسلم خبر إسلام نعيم بن مسعود (الطبري، ق١، جـ ٣ : ١٤٨)، وقد ساعد هذا على إنجاح مهمة نعيم حيث أوقع بين الأحزاب من جهة، واليهود من جهة أخرى [١١]، ولو علمت عيون العدو بهذا الأمر لفشلت مهمته. هذا بالإضافة إلى أنه عليه السلام كان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها، ولم يصرح لأحد بقصده إلا في غزوة تبوك لبعد الشقة وثقل المؤونة (ابن عبد الوهاب، ١٣٩١ : ٣٥١)، (عون، ١٩٦١ : ٢١١)، ودليل ذلك أنه عندما أراد أن يغزو بني لحيان بسبب غدرهم بدعاة المسلمين أمر بإعداد حملة للانتقام منهم فأظهر أنه يريد الشام، وتحرك بقواته شمالا، فلما اطمأن إلى انتشار خبر حركته إلى الشمال كر راجعا مسرعا نحو مكة، إلا أن بني لحيان تمكنوا

من الفرار على رؤوس الجبال (ابن قيم الجوزية، ١٣٩٠، جـ ٢ : ١٣٢) ، (ابن حزم : ٢٠٠) . ونفس الطريقة اتبعها عليه السلام عندما أراد التوّجه نحو خيبر، إذ انه لم يتوجه إليها مباشرة بل توجه إلى الرجيع من أرض غطفان، بعدها كرّ عليه الصلاة والسلام راجعا إلى خيبر ففاجأها (ابن هشام، جـ ٢ : ٣٣٠) .

وقد تجلت الخبرة العسكرية للرسول عليه السلام في هذا المجال أثناء الإعداد لفتح مكة، فيأتي جانب نجاحه المطلق من تعمية وإخفاء أمر الاستعداد عن العدو وعيونه، فقد ابتكر مانسميه في أيامنا هذه بتأشيرة الدخول، حيث يوصى صاحبه الجليل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقد أوكلت إليه مهمة الإشراف على حراسة المدينة ـ بألا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه، إلا من سلك إلى مكة فإنه يحتفظ به ويسأل عنه (فرج : ٣٠٥) .

وهكذا جاءت الفكرة متناسقة مع كافة الاستعدادات التي أعدت لفتح مكة، وكانت في غاية السرية، حتى أنه عليه السلام أخفى نواياه عن أهله، حتى ان صديقه أبا بكر عندما سأل ابنته السيدة عائشة عن وجهة الرسول صلى الله عليه وسلم قالت: والله لا أدري (ابن هشام، جـ ٢ : ٣٩٧) ، (المقريزي، ١٩٤١، جـ ١ : ٣٦١)، وزيادة في الحرص والحذر وتعمية للعدو وعيونه أرسل سَرِيّة إلى بطن إضم (الطنطاوي : ١٤٢) ولم يكتف بهذه الإجراءات لكنه بث عيونه وأرصاده ودورياته لتحول دون تسرب المعلومات عن وجهته، فانتشروا في داخل المدينة وخارجها حتى يضمن عدم تسرب أية معلومات لقريش[١٢] عن طريق أعوانها وعيونها في داخل المدينة، وقال عليه الصلاة والسلام (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش) (ابن هشام، جـ ٢ : ٢٩٧)، (ابن سيد الناس، ١٩٧٤، جـ ٢ : ١٦٦)، (ابن قيم الجوزية، ١٣٩٠، جـ ٢ : ١٨٠) بعد هذه الاستعدادات تحركت القوات صوب مكة ووصلتها، وفوجئت قريش التي اضطرت إلى التسليم (ابن خلدون، ١٩٨١، جـ ٤ : ٨٠٣) .

هذا بالنسبة لتطبيق مبدأ الحذر والكتمان، أما بالنسبة لاتخاذ الحراسات ليلا ونهارا فقد اهتم عليه السلام بهذا الأمر اهتماما كبيرا حتى يمنع عيون العدو من اختراق صفوف المسلمين وإلحاق الأذى بهم. وقد كان للرسول صلى الله عليه وسلم من يحرسه، فقد مر عمرو بن سعدى في طريقه وهو ذاهب إلى المسجد ـ بحرس الرسول وكان في تلك الليلة محمد بن سلمة، فما رآه صاح به من هذا؟ قال عمرو بن سعدى، فلما عرفه لم يعترضه (كمال، ١٩٨٢، جـ ١ : ٢٥) . وعندما علم المسلمون بنية قريش في التوجه نحو المدينة أعلنت حالة التأهب، وانتشرت حراسات حول المدينة ومداخلها يحرسونها خوف تسرب عيون العدو داخلها، وحتى لايؤخذوا على حين غرة، فكلف سلمة بن أسلم في مائة رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل لحراسة المدينة (ابن سعد، ١٣٩٨، جـ ٢ : ٦٧)، ثم اختيرت مجموعة من فتية الأنصار لحراسة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان على رأسهم الصحابة المكرمون[١٣]، سعد ابن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة، باتوا وعليهم السلاح في المسجد على باب رسول الله يحرسونه، وقد ظلت حراسة الرسول قائمة حتى نزلت الآية القرآنية الكريمة (والله يعصمك من الناس) عندها أمر عليه الصلاة والسلام بصرف الحرس (ابن قيم الجوزية، ١٣٩٠، جـ ١ : ٤٧) .

وفي غزوة ذات الرقاع سنة ٤ هـ احتاط عليه الصلاة والسلام حتى لايفاجأ من قبل العدو أو عيونه وكلّف عمار بن ياسر وعبادة بن بشر بالحراسة وكانا يتناوبان الحراسة معا (ابن هشام، جـ ٢ : ٢٠٩) ورغم كل ماذكرنا من حذر المسلمين وحرصهم، فإن بعض المواقف تدل على أن عيونهم لم يكونوا دقيقين أحيانا في جمع المعلومات وتحرى الدقة، وأنهم كانوا أحيانا يتهاونون في قضية الحراسة ورصد تحركات العدو، بدليل ان عيون العدو تمكنت أحيانا من اختراق صفوف المسلمين حتى أن حياة الرسول عليه الصلاة والسلام قد تعرضت للخطر لولا لطف الله، فها هو دعثور ويقال له عورت بن الحارث يتمكن من الوصول إلى مكان الرسول عليه السلام وكان في نيته الغدر، لكن محاولته فشلت بإذن الله، ثم دعى هذا إلى الإسلام فأسلم (ابن هشام، جـ ٢ : ٢٠٥)، (المقريزي، ١٩٤١، جـ ١ : ١١١)، ونزلت بمناسبة هذه الحادثة الآية الكريمة ((ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفّ أيديهم عنكم))[١٤] كذلك فشلت مهمة عمير بن وهب (باشميل : ١١٧)، الذي جاء لاغتيال الرسول عليه الصلاة والسلام.

صحيح أن هذه المحاولات فشلت بأمر الله، لكن الأعداء تمكنوا من الاختراق والتسلل، فقبل معركة بدر تمكن عين من عيون العدو من نقل معلومات عن جيش المسلمين (باشميل : ١٤٦ ـ ١٤٧)، كذلك قام أبو سفيان بنفسه يستطلع أخبار المسلمين، وعندما وصل إلى ماء بدر تمكن من معرفة وجود جيش المسلمين عن طريق فحص روث الإبل التي كانت قد حضرت إلى هذا المكان مع بعض المسلمين، حيث وجد في الروث نوى فعرف أنها للمسلمين، وقال هذه والله علائف يثرب (ابن هشام، جـ ١ : ٦١٨)، (الطبري، جـ ٣ : ١٣٠٥).

هذا وقد لعب اليهود دورا خطيرا في تسريب المعلومات إلى اعداء المسلمين، ففي فترة حصار المدينة من قبل الأحزاب تسلل رجل يهودي إلى الدور التي تجمعت فيها نساء وصبية المسلمين، وأخذ يتجول في شوارعها ليجمع المعلومات عن مواضعها، ومدى مناعتها وحصانتها وحمايتها (الطبري، جـ ٣ : ١٤٧٩) لكن هذا الجاسوس لم يتمكن من توصيل المعلومات لأنه قتل على يد امرأة مسلمة كانت قد شكّت في نواياه(ابن هشام، جـ ٢ : ٢٢٨).

ولا يجب أن يفهم من ذلك بأن المنطقة لم تكن محروسة، وإنما كانت هناك حراسات يتولاها سلمة بن أسلم وزيد بن حارثة (ابن سعد، ١٣٩٨، جـ ٢ : ٦٧) وعن طريق اليهود أيضا تمكن أبو سفيان من شن غارة خاطفة على المدينة لكنها لم تكن ذات شأن (ابن قيم الجوزية، ١٣٩٠، جـ ٢ : ١٠١) حيث تسلل أبو سفيان ليلا ونزل على سلام بن مشكم من سادة اليهود، وعرف منه أخبار المسلمين وتدارس معه إحدى الطرق لإيقاع الأذى بهم، والإفلات بعد ذلك سالما من مطاردة المسلمين (ابن هشام، جـ ٢ : ٤٤). هذا وقد تمكنت إحدى الطلائع الإسلامية التي كان يقودها الصحابي الجليل علي بن ابي طالب رضى الله عنه من القبض على أحد عيون بني سعد بن بكر، وبعد التحقيق معه اعترف بأنه عين لبني سعد بعثوه إلى خيبر ليعرض على يهودها النصرة مقابل أن يجعلوا لهم من ثمرهم كما جعلوا لغيرهم، وقام بتعريف المسلمين على مكان بني سعد بعد أن أمّنوه (الطنطاوي : ٩٧ ـ ٩٨).

وفي يوم حنين فوجيء المسلمون بكمين أعدته هوازن أربك صفوفهم، ولو أن عيون المسلمين وطلائعهم كانوا أكثر دقة في الرصد والمتابعة لما وقعوا في هذا الكمين[١٥]، الذي كاد أن يوقع الهزيمة بالمسلمين لولا ثبات الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض من صحابته الكرام الذين حولوا الهزيمة إلى نصر مؤزر.

كذلك كانت عيون الروم واستخباراتهم نشطة في جمع المعلومات عن المسلمين وأحوالهم، فقد عرف ملك غسان الموالي للروم أن الرسول عليه الصلاة والسلام، غاضب على كعب بن مالك لتخلفه يوم تبوك فأرسل له الملك الغساني رسالة يغريه فيها بأن يلتحق كعب بالغساسنة (ابن عبد الوهاب، ١٣٩١ : ٣٥٤ ـ ٣٥٥) وهذا يدل على أن هذه العيون لم تكن تهمل شيئا حتى الأمور الشخصية أحيانا.

لكن حوادث الاختراق القليلة التي حدثت من قبل عيون العدو لم تكن ذات بال، لأنها لم تحدث أي ارتباك في صفوف المسلمين، بدليل أن خطى الجيش الإسلامي ظلت ثابتة، وتنتقل من نصر إلى نصر بقيادة رسولنا الكريم عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم.

معاملة العيون والطلائع

اهتم المسلمون بأمرهم اهتماما كبيرا، إذ وضعوا لهم منهجا يعتبر من أحدث المناهج المتبعة في الدول الحديثة، فالرسول عليه الصلاة والسلام كان ينهاهم عند القيام بمهمتهم ألا يحدثوا حدثا ينبّه العدو كما حدث مع حذيفة بن اليمان (الطبري، جـ ٣ : ٣٥) عندما دخل في صفوف قريش في معركة الخندق، كما أوصاهم ألا يقتلوا أحدا إلا إذا أجبروا على ذلك، لأن عملية إحضار المعلومات كانت تهم القيادة الإسلامية أكثر من قتل فرد أو أفراد كما حدث مع عبدالله بن أبي حدرد عندما أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم ليقيم في هوازن ويعلم علمهم وينقل أخبارهم.

وقد اتبع المسلمون في هذه الفترة وسائل متعددة ومختلفة مع عيون العدو عند القبض عليهم. فيبدأ بالتحقيق الدقيق وبأسلوب لين ومقبول للتعرف على هويتهم وطبيعة مهمتهم ومحاولة كسبهم، فإذا أقرّ العين بطبيعة عمله وأظهر تعاونا أعطى الأمان، ويعرض عليه الدخول في الإسلام فيدخل أحيانا، أما إذا أنكر وأجبر على الإنكار تعرض للضرب، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى المسلمين عن ذلك، ودعاهم إلى استخدام اللين، ولكن في بعض الإحيان قد تصل عقوبة عيون العدو إلى حدّ الإعدام.

ففي يوم بدر قبض المسلمون على بعض عيون العدو، وعندما أنكر هؤلاء تعرضوا للضرب، وحملوهم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وطلب الكف عن إيذائهم، وأخذ يحقق معهم حتى تمكن من معرفة ما يريد.

وفي السنة الثالثة من الهجرة نفذ حكم الإعدام في معاوية بن المغيرة بن أبي العاص الذي تسلل

إلى المدينة وأخذ يجمع الأخبار والمعلومات وانسحب بعد ذلك، لكن المسلمين أدركوا حقيقته وطاردوه حتى قتلوه (باشميل: ٢٧٩ ـ ٢٨٠). وفي السنة الخامسة من الهجرة وفي شهر ربيع الأول قاد عكاشة بن محصن قوة ضد بني أسد، إلا أن هؤلاء تفرقوا قبل وصوله، وفي الأثناء قبض رجال عكاشة على رجل من بني أسد، وحققوا معه، إلا أنه لم يقر بشيء، فضربه أحد رجال الاستطلاع بسوط، فلما أحس بالضرب قال: أتؤمنوني على دمي وأطلعكم على نعم لبعض القوم، فوافقوا إلا أنهم خافوه فقال له عكاشة والله لتصدقننا أو لنضربن عنقك. . . . . فخاف ودلهم على المكان (باشميل: ٣٠ ـ ٣١).

وفي نفس السنة ألقى القبض على رجل وحمل إلى مقر القيادة وسئل عن قومه فأنكر ثم عرض عليه الإسلام فرفض فأمر بقتله (باشميل: ٩٦)، وكان العين يقتل حتى لايتمكن من العودة إلى أصحابه ومعه الأخبار والأسرار عن المسلمين، وقد جاء في سنن أبي داود قال حدثنا الحسن بن علي عن . . . . . قال «أتى النبي عليه الصلاة والسلام عين من المشركين وهو في سفر، فجلس عند أصحابه ثم انسل فقال عليه الصلاة والسلام: اطلبوه فأقتلوه» (أبو داود، جـ ٣ : ٤٨ ـ ٤٩).

مما سبق يمكن أن نستخلص أن الدين الإسلامي الحنيف أجاز أشياء في حالة الحرب وحرمها في غيرها، فقد أجاز استطلاع الأخبار عن العدو والتمويه وخداع الأعداء والخصوم والكذب عليهم مادام في ذلك مصلحة للمسلمين، وأجاز الهدم والقطع في حالة الحرب وحرّمه في غيرها (ابن عبد الوهاب، ١٣٩١ : ٣٢٩).

وقد مرّت في ثنايا البحث بعض الأمثلة على مانقول، مما يؤكد أن استطلاع الأخبار لصالح المسلمين فرض على الدولة من أجل المحافظة على كيانها وتحقيق الانتصار على أعدائها، أما الكشف عن أخبار المسلمين لصالح الأعداء فهو حرام قطعا. قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة، وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي، تسرّون إليهم بالمودة، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل» (سورة الممتحنة، آية ١).

هذا وقد نهت السنّة النبوية المشرفة عن التجسس على المسلمين. فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا» فإذا كان هذا في الحياة العادية فالأمر في حالة الحرب أشد وأكثر خطورة.

وختاما أقول إنني لم أتعرض في هذا البحث إلى المعجزات الإلهية التي أيدت الرسول صلى الله عليه وسلم وشدت من عزيمته، لأن هذه قضية نؤمن بها إيمانا قاطعاً وإنما أشرت فقط إلى شريحة واحدة من شرائح الفكر العسكري التي طبقها عليه الصلاة والسلام، ودلت على سمّو فكره، وما يتمتع به من مواهب عظيمة منحتها إياه العناية الإلية فقادته من نصر إلى نصر حتى تمكن من رفع راية الإسلام عالية خفاقة.

وما أجدر بنا نحن المسلمين في هذه الأيام أن نحذو حذو رسولنا الكريم عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم، ونتبع خطاه الظافرة، وصدق الله مولانا العظيم الذي يقول في كتابه العزيز (ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة).

الهـــوامش

(١) العيون والطلائع : هناك اتفاق كبير في معنى ومضمون الاصطلاحين، إذ جاء في لسان العرب، العين. ومنه قيل ذو العينين للجاسوس والعين الذي يبعث ليتجسس الخبر وفي الحديث، انه بعث بحسيسه عينا يوم بدر أي جاسوسا، ومنه حديث الحديبية كان الله قد قطع عينا من المشركين أي كفى الله منهم من كان يرصدنا ويتحسس علينا أخبارنا. والاعتياث : الارتياد. وبعثنا عينا أي طليعة يعتاننا ويعتان لنا أي يأتينا بالخبر (مادة عين).
الطليعة : القوم يبعثون لمطالعة خبر العدو وطليعة الجيش، الذي يطلع من الجيش يبعث ليطلع طلع العدو وفي الحديث انه كان إذا غزا بعث بين يديه طلائع، وهم القوم الذين يبعثون ليطلعوا طلع العدو كالجواسيس.
(مادة طلع) واضح مما سبق أن الشبه كبير بين الكلمتين إلا أن هناك فوارق بسيطة من حيث العدد، فالطليعة لا يجب أن تقل عن ثلاثة أفراد، وعليها أن تحصل على المعلومات دون قتال إلا عند الضرورة، وأن تكون سريعة الحركة خفيفة الأحمال (الهرثيمي ص ٤٩). أما العيون فيجوز أن تكون فرداً واحدا أو أكثر، كما هو واضح في متن البحث.

(٢) في معركة أحد قام الرسول عليه الصلاة والسلام بدراسة أرض المعركة ورأى ان يستفيد المسلمون من وجود الجبل فجعلوه خلفهم ليحمي ظهورهم.

(٣) ابن هشام: السيرة ٥٩١/١ ، ابن سعد الطبقات ٨/٢، ابن قيم الجوزية زاد المعاد ٩٣/٢، ابن كثير: البداية ٢٤٦/٣ - ٢٤٧.

(٤) كما حدث حين أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم ابن أبي حدرد ليقيم في هوازن قبل معركة حنين، وكذلك حذيفة بني اليمان، الذي دخل إلى معسكر الأعداء في معركة الخندق.

(٥) ابن سعد: الطبقات ٩١/٢ - الطبري: ١٣٧٦/٣، ابن عبد البر: الاستيعاب ٩٤٧/٣، ابن حجر: الاحبار ٣٤١/٢

(٦) ابن سعد: الطبقات ١٢/٢، ابن هشام: السيرة ٦٠٤/١ ، البغدادي : المحبر ق ٢، سنن أبي داود: ٣٨/٣.

(٧) انظر: نتائج غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم.

(٨) ابن عبد البر: الاستيعاب ٨٠١/٢ - ابن حجر: الإصابة ٢٦٣/٢، ابن حزم: جوامع السير ١٥٥ - البغدادي: المجد ٢٨٢، ابن هشام: السيرة ٥٥/٢.

(٩) انظر على التوالي :
البغدادي : المحبر ٢٨٢ - ابن حجر: الإصابة ٢٧٨/٢ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٢٨٥/١ - ٢٨٦، ابن هشام : السيرة ٢٧٤/٢ - زاد المعاد ١٣٢/٢.

(١٠) عبد الرؤوف عون: الفن الحربي في صدر الإسلام ص ٢١١ وجاء في سنن أبي داود، عن أم حبيبة قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لاتصحب الملائكة رفقة فيها أجراس ٢٥/٣.

(١١) ابن هشام : السيرة ٢ / ٢٢٩ ـ زاد المعاد ٢ / ١٣١ ، سنن أبي داود : ٣ / ٤٣ ـ البخاري ٢ / ١٧٤

(١٢) ودليل ذلك الكشف عن محاولة حاطب بن أبي بلتعة الاتصال بقريش في مكة ، وقد عفى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم إدراكا منه بصدق إسلام حاطب ، وأنه كان من الذين اشتركوا في معركة بدر.

(١٣) عن سيرتهم انظر :
ابن الجوزى : صفة الصفوة ١ / ٤٥٥ ـ ٥٠٢ ـ ٥٠٣ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ١ / ٩٠٢ ـ ٢ / ٥٩٤ ـ ٦٠٢ .

(١٤) محمد الصابوني : مختصر تفسير ابن كثير: سورة المائدة آية ١١ حيث يذكر أكثر من مناسبة لنزولها ومنها خيانة بنى النضير.

(١٥) في هذه المعركة واجه المسلمون هزيمة مؤكدة ، إذ تبعثرت صفوفهم وكثر فيهم القتل ، ولم يبق مع رسول الله صامدا أمام جحافل العدو وكتائبه ، إلا نفر قليل من أصحابه ، ثم تلاحقت بهم القوات الإسلامية التي حولت الهزيمة إلى نصر مؤزر. ويصور الطبري هول الموقف كما نقل له (لما استقبلنا وادى حنين . . . اغدرنا في واد أجوف خطوط تنحدر فيه انحدارا . . . وفي عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي ، فكمنوا لنا في شعابه واحنائه ومضايقه ، قد اجمعوا وتهيئوا وأعدوا . . . فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد ، وانهزم الناس أجمعون فانشمروا لا يلوى أحد على أحد ، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ثم قال أيها الناس هلم إليّ أنا رسول الله أنا محمد بن عبدالله . . .) فعاد إليه أصحابه وكان نصر الله الذي وعده لعباده الصالحين وفي هذه الوقعة أثل بعض المنافقين برؤوسهم وأظهروا الحقد والحسد وشتموا بالمسلمين.
٣ / ٧٤ ـ ٧٥ بيروت ١٣٨٢ ـ ١٩٦٢ .

المراجع العربية

القرآن الكريم

ابن الجوزي ، جمال الدين ابو الفرج — **صفة الصفوة** ، بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر ، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩ ، حلب ١٣٨٩هـ.

ابن حجر ، شهاب الدين ابي الفضل أحمد (ت : ٨٥٢ هـ) — **الاصابة في تمييز الصحابة** ، القاهرة : مطبعة السعادة الطبعة الاولى ١٣٢٨هـ.

ابن حزم ، ابو محمد علي بن سعيد — **جوامع السير** ، تحقيق : احسان عباس ، ناصر الدين الأسد باكستان : دار الحياة.

ابن خلدون ، عبد الرحمن — **العبر وديوان المبتدأ والخبر** ، بيروت : ١٩٨١ .

ابن سعد ، محمد — **الطبقات الكبرى** ، بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٣٩٨هـ.

ابن سيد الناس ، فتح الدين ابو الفتح محمد بن محمد (ت : ٧٣٤ هـ) — **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير** ، بيروت ١٩٧٤ . القاهرة : مكتبة القدسي ، ١٣٥٦هـ.

ابن عبد البر ، ابي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد — **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ، القاهرة : مكتبة نهضة مصر.

بن عبد الوهاب ، محمد — **مختصر زاد المعاد** ، بيروت : المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، ١٣٩١هـ.

ابن قيم الجوزيه ، شمس — **زاد المعاد في هدى خير العباد** ، القاهرة : شركة ومطبعة

الدين أبي عبدالله

ابن كثير، اسماعيل بن عمر (ت : ٧٧٤ هـ)

ابن هشام، ابو محمد عبد الملك

ابو داود، سليمان بن الاشعث السجستاني

اسماعيل، أحمد علي

باشميل، أحمد ـ

ـ

ـ

ـ

البخاري، ابي عبدالله محمد بن اسماعيل بن المغيرة

البغدادي، ابو جعفر محمد بن حبيب بن عمر الهاشمي (ت : ٢٤٥هـ)

الحسن، محمد علي

الصابوني، محمد علي

الطبري، محمد بن جرير

طنطاوي، محمد

الغزالي، محمد

فرج، محمد

كمال، أحمد

محفوظ، محمد

مسلم، الامام ابي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري

المقريزي، احمد بن علي

الهـرثـمي

اليعقوبي، أحمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن مصعب

الحلبي بمصر، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

البداية والنهاية، بيروت: مكتبة المعارف، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

السيرة النبوية. القاهرة: شركة ومطبعة الحلبي، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

سنن ابي داود، القاهرة: دار الفكر للطباعة والنشر.

التعبئة العامة في صدر الاسلام والعهد الأموي، بيروت: دار الشورى، ١٩٨٢م.

غزوة بدر، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

غزوة أحد،

غزوة الأحزاب، دار الفكر، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

صلح الحديبية، طبعة أولى، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١.

صحيح البخاري، اسطنبول ـ نشر شعبان قورت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

المحبر، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع.

السلام في القرآن والسنة، عمان: مكتبة النهضة الاسلامية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

مختصر تفسير ابن كثير، بيروت: دار القرآن الكريم، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

تاريخ الرسل والملوك، بيروت: مكتبة خياط.

السرايا الحربية في العهد الاموي، القاهرة: الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

فقه السيرة، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٥م.

المدرسة العسكرية، دار الفكر العربي.

محمد بن سلمه، دار عكاظ للنشر، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

المدخل الى العقيدة والاستراتيجية العسكرية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م.

صحيح مسلم، نشر محمد فؤاد عبد الباقي، اسطنبول: ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

امتاع الاسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والمتاع، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤١م.

مختصر سياسة الحروب، تحقيق عبد الرؤوف عون، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٤م.

تاريخ اليعقوبي، بيروت: دار صادر.